مع المخطوطات العربية (لكراتشكوفسكي)

عبد الفتاح الحلو
أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كراتشكوفسكي، أغناتي/ مع المخطوطات العربية. — مطبعة التقدم، ١٩٦٣م.

هذا كتاب طريف، يتضمن ذكريات عزيزة على نفس مؤلفه، عاشها مع المخطوطات العربية، ومع الناس الذين التقى بهم في رحاب المخطوطات العربية، وكان صدوره في أصله الروسي للمرة الأولى سنة ١٩٤٥، واستقبل بترحاب كبير جعله يكتب مقدمة الطبعة الثانية في ديسمبر ١٩٤٥، ثم تصدر طبعته الثالثة سنة ١٩٤٨، وعن هذه الأخيرة تمت ترجمته العربية التي صدرت عن مطبعة التقدم سنة ١٩٦٣م.

وقد خلت هذه الطبعة من ذكر المترجم، وأعاد المترجم الدكتور محمد منير موسى طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٦٩م في طبعة منقحة، نشرتها دار النهضة العربية، واعتمادنا في ذكر الصفحات على طبعة مطبعة التقدم.

ومؤلف الكتاب اغناتي كراتشكوفسكي ولد سنة ١٨٨٣ في مدينة فيلنو، (في جمهورية ليتوانا السوفيتية الآن)، ثم انتقل به أبوه إلى مدينة طشقند، فاتصل بالحياة في آسيا الوسطى، وفي المدرسة الثانوية راح يدرس النحو العربي بنفسه، ثم انتسب سنة ١٩٠١ إلى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورج (لينتجراد اليوم) ودرس إلى جانب اللغة العربية والأدب العربي لغات شرقية أخرى، وقد أنهى المرحلة الجامعية سنة ١٩٠٥، وأرسل عام ١٩٠٨ إلى الشرق العربي لاستكمال دراسته، فظل فيه إلى سنة ١٩١٠، ثم عاد، وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٢١، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣، وبلغ مجموع ما كتبه كراتشكوفسكي نحو ستمائة دراسة علمية، ومات سنة ١٩٥١.

وقد رأيت قبره في لينتجراد سنة ١٩٧٧. حين كنت فيها ضمن وفد معهد المخطوطات العربية، بحثاً ودراسة للمخطوطات العربية في الاتحاد السوفيتي، وقد أحيط قبره بسياج برونزي يرتفع عن الأرض قليلاً كتبت عليه بخط كوفي أبيات أبي العتاهية، التي يقول فيها :
« الموت باب وكل الناس داخله ».

أما كتابه «مع المخطوطات العربية»، فقد سرد فيه ذكرياته مع المخطوطات والمتصلين بها دون التقيد بمنهاج مرسوم، وجاءت هذه الذكريات في فصول ثمانية، تحدث في الأول منها عن أول عهده بالمكتبة العامة ببطرسبورج وقسم المخطوطات بها حين دخل الجامعة، وفي الثاني عن جولاته في الشرق، ولقائه بعلمائه وسدنة المخطوطات فيه، وفي الثالث عن بعض الكتاب العرب ومستغرب روسي، وفي الرابع عن المتحف الآسيوي وبعض المخطوطات فيه، وفي الخامس عن المكتبة الجامعية في بطرسبورج وعن الشيخ محمد عياد الطنطاوي وعن المدرسة الإسبانية في الاستشراق، وفي السادس عن بعض ذكرياته مع لوحات أثرية. ورسالة صفدية، وأوراق من مصحف بخط كوفي، وعن ترجمة روسية لمعاني القرآن الكريم، وفي السابع عن علاقة المستشرقين بالمخطوطات العربية، وعشقهم للتراث العربي، وجهودهم في الإفادة منه، وفي الثامن عن مراحل نشر ديوان الأخطل.

والحق أن هذا الكتاب ممتع؛ لأن صاحبه أرسل نفسه على سجيتها، فهو إلى الحديث الشخصي أقرب، وهو إلى الحكاية أنسب، ولذلك فإن القارىء لا يمل من متابعته ويشعر خلاله بهذا العبق الاخاذ للمخطوطات العربية، وهي تطوف بالنفس في مجاهل التاريخ ، وتكشف له عن كنوزها، وتطلعه على أسرارها بعد جهد ودأب يجعل للفوز بها في النهاية مذاقاً شهياً، ونشوة آسرة أخاذة.

وليس هذا هو حصاد قراءة الكتاب فحسب، وإنما تجتمع لدى القارىء فوائد كثيرة تكشف النقاب عن ملامح كثيرة في حياة الاستشراق والمستشرقين، وأعد منها :

أولاً : بعض الدوافع التي تعلن عن نفسها، وتكشف عن الرابطة النفسية الخفية التي تلازم المستشرقين المسيحيين وتربطهم بالتراث المسيحي المكتوب باللغة العربية، وقد كشف المؤلف عن هذا في حديثه عن المستشرق ريسكه (ص ٣٢١) حين قال عنه: لقد جاء حقاً قبل أوانه، ففي العصر الذي سيطرت فيه نظرية أن الاستعراب يجب أن يقتصر على خدمة علم اللاهوت المسيحي، جرؤ على أن يعلن أن «اللغة العربية يمكن أن تكون مفيدة جداً للتاريخ والشعر، وهذا ما يقوّي رغبتي [الكلام لريسكه] في أن تكون اللغة العربية عندنا أكثر شهرة وذيوعاً، ولا يهمني أن ما يسمى بعلم اللغة المقدسة يمكن أن يبنى على أساسها...». بل إن من الأشياء التي أثارت اهتمام كراتشوفسكي في أوائل اطلاعه على المخطوطات خمس ورقات من الرق هي كل ما بقي من مخطوط كتب سنة اثنتين وسبعين ومائتين للهجرة، كتبه انبا أنطونه البغدادي في دير القديس سابا واستكتبه ابنا إسحاق لطور سيناء.

وكانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الطوائف غير المسلمة في البلاد الإسلامية تشغل مكاناً كبيراً في تفكيره، وهو يقول (ص ٢٦) : وإني لشديد الرغبة في أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة في البلاد التي استولوا عليها، وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين... . ولذلك اهتم بزيارة بطريرك أنطاكية مكاريوس لروسيا، وبوصف ابنه بولص الحلبي لهذه الزيارة، وظل يبحث عن نسختها الأصلية التي ترجع إلى عام ١٧٠٠ حتى عثر عليها، أو ساقها قدرها إليه ص٧٨ ــ ٨٨)، كذلك كان فرحه عظيماً حين وقعت بين يديه نسخة التوراة العربية في ثلاثة، مجلدات، من مخطوطات البطريرك غريغوريوس الحداد الأنطاكي، التي أهداها إلى روسيا سنة ١٩١٣ في الاحتفال بذكرى عائلة رومانوف القيصرية، يقول كراتشكوفسكي (ص ٩١): وكان وجود هذه التوراة لدينا مبعث غيرة لدى الفاتيكان.

ثانياً : دأب المستشرقين في تعلم العربية، والرغبة في التعمق في الدراسات الإسلامية، وتنميتهم لهذا برحلتهم إلى الشرق، والاختلاط بأهله، والتعلم منهم، وقد لمست مدى الفائدة التي يجنونها من لقائهم بالمختصين العرب، في سفرتي إلى روسيا، فقد التقيت بعدد كبير من المستشرقين في لينينجراد، وعلى رأسهم الدكتور أنس خالدوف، ومعرفته بالعربية ومخطوطاتها جيدة، وقد رغب إليّ الرجل في أن نتدارس الأدب، وكنا نجلس في عطلة نهاية الأسبوع في حجرتي بالفندق ليقرأ عليّ شعر عدي بن زيد العبادي من كتاب الأغاني، وكم كانت دهشتي كبيرة حين سمع مني بشرح الأبيات، فقد ارتفع الشعر العربي لديه إلى الذروة، وأدرك روعة المعاني وجمال المباني وسحر الأداء، وقد دفعه هذا إلى أن يعقد معي حلقات أخرى في القاهرة يتفهم فيها عبارات الفقهاء ومصطلحاتهم ، ويتعرف إلى أشياء كثيرة تربو فيها فائدة التلقي على النظر في أعطاف الكتب.

ويتضح هذا من رحلة كرتشكوفسكي إلى الشام ومصر (١٩٠٨ ــ ١٩١٠) فقد أفاد من لويس شيخو في المكتبة الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت، كما حاول اللقاء بالعلامة أحمد تيمور في القاهرة فلم يوفق لسفر الباشا، ثم قام البريد بينهما مقام اللقاء، فأمطر أحمد تيمور صديقه الموسكفي بفوائده وتقييداته حتى وفاته رحمه الله، وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي (ص ٦٥): كان هذا العالم كريماً لدرجة عجيبة، فقد كشف كل كنوزه لمختلف العلماء من مختلف البلاد، وكان هذا العالم متواضعاً نادر الوجود، فقد كان يجعل من نفسه زميلاً في العمل لمن يراسله من العلماء، إذا أحسّ بأن لدى هذا المراسل تذوقاً للأدب العربي، ثم كانت لكراتشكوفسكي لقاءات فكرية بأعمال محمد تيمور ولد العلامة أحمد تيمور، ثم مراسلات كثيرة مع ولده الآخر محمود تيمور. وقد التقى بأمين الريحاني مصادفة في بيروت سنة ١٩١٠، وأتيح للمراسلة بعد هذا أن تنمي الصلة بينهما حتى وفاته سنة ١٩٤٠م. كما كانت له صلات مراسلة بميخائيل نعيمة.

ويلفت النظر في هذا الجانب الفصل الذي كتبه كراتشكوفسكي عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي (ص ٢٢٨ ــ ٢٤٢) الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورج، والمستشار برتبة عقيد، وقد جمع الطنطاوي مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً من قريته ومن طنطا

والقاهرة، وأثناء رحلته إلى روسيا ماراً بتركيا. وآلت هذه المخطوطات إلى مكتبة الجامعة. وقد رأيت عنايته بالمخطوطات، وأدركت مبلغ علمه بالأدب العربي، حين كنت أراجع بمكتبة معهد الدراسات الشرقية بلينينجراد نسخة من يتيمة الدهر للثعالبي، عليها خطه. وقد ألف أثناء مقامه في بطرسبورج كتابه «تحفة أولى الألباب في أخبار بلاد روسيا»، وأهداه إلى السلطان عبد المجيد، كما عثر على مخطوطة بقلمه في «وصف روسيا»، ويتضح من خلال هذا الفصل جهود الشيخ الطنطاوي، وأثره على الدراسات العربية في روسيا، ومدى استفادة المستشرقين من علمه.

ثالثاً : يكشف هذا الكتاب عن الظروف الخاصة ببعض المخطوطات العربية، والجهود التي بذلت في سبيل نشرها، كما يسجل الخواطر النفسية لمستشرق تنقلت به الأحوال بين الفرحة والترحة، والنشوة والإحباط، والأمل واليأس، وهو يتعامل مع بعض كتب التراث العربي، ويتضح هذا من عرضه لانتقال كتاب الإدريسي «نزهة المشتاق» من صقلية إلى بطرسبورج عبر إيران (ص ٣٤ ـ ٣٦)، ومن اكتشافه لرسالة نحوية لأبي العلاء المعري بمكتبة الأزهر وحديثه مع الشيخ المحمصاني حولها، ثم اتضاح الأمر له حيث تبين أنها رسالة الملائكة، وصبره عليها نحو عشرين عاماً يعالج نصها حتى صدرت سنة ١٩٣٢ (ص ٥٩ ـ ٦٦)، ثم تعلقه في مكتبة الإسكندرية بنسخة ديوان سلامة بن جندل، التي كتبت على طريقة ابن البواب، وإعجابه بها، ونسخه لها، ثم ما أصيب به من خيبة أمل حين سافر من الإسكندرية إلى بيروت ففوجىء بلويس شيخو يطبع الديوان.

وقد عرض كراتشكوفسكي تجارب كثيرة ، وكشف عن تطورات مثيرة، وهو يتحدث أيضاً عن «البديع» لابن المعتز (ص ١٠٢) وابن قزمان وموشحاته وأزجاله (ص ١٥٢)، وكتاب «المنازل والديار» لأسامة بن منقذ (ص ١٦٤)، والأراجيز الثلاث لرائد البحرية العربي أحمد بن ماجد (١٧٨)، وديوان الأخطل وجهود ناشره في إخراجه على مدى خمسين عاماً (ص ٣٣٧).

رابعاً : والكتاب مفيد أيضاً في إيضاح الصورة عن أعمال المستشرقين في روسيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بل إنه يكشف عن مدى الصلات بين المدرسة الاستشراقية في روسيا، والمدارس الأخرى في أوربا.

خامساً : كما يكشف أيضا عن الأساليب التي اتبعت في تكوين مجموعات المخطوطات العربية في روسيا، فقد ذكر كراتشكوفسكي وقائع كثيرة توضح ذلك، لعل من أهمها إهداء غريغوريوس الحداد البطريرك الأنطاكي أكثر من أربعين مخطوطاً من مكتبته في سوريا إلى القصر الملكي في بطرسبورج، يقول عنها كراتشكوفسكي: وهذه المخطوطات في الحقيقة عظيمة ورائعة، وغالبيتها مخطوطات فريدة لا توجد لها نسخ أخرى مماثلة.

كما تلقى المتحف الآسيوي أكثر من ألف مخطوط، تعرف باسم مجموعة القفقاس، كانت قد أحضرت من جبهة الحرب في القفقاس (ص ١٤٥) ، كما جمع إيفانوف «مجموعة بخارى» (ص ١٤٦)، وقد تحدث كراتشكوفسكي عن مجموعة روسو، التي جمعها في سوريا، وكيف وصلت إلى المتحف الآسيوي، وحرمت منها فرنسا (ص ١٥٣ ـ ١٥٦) كما حكى في إسهاب كيف وصلت إلى يده رقوق من المصحف الشريف بخط كوفي قديم، تبيعها سيدة من أصل عربي، وكيف تهدّى إلى أنها من مجموعة إيريني نوفل (ص ٢٩١ ـ ٢٩٩).

سادساً : ومن الأشياء الطريفة التي يعرضها هذا التمازج الذي يحدث بين بعض المستشرقين والمخطوطات إلى الحد الذي يقع فيه المستشرق صريع عمله، وقد أطلق هذا اللقب على ريسكه، حيث قيل له: «صريع الأدب العربي» فمنذ أن كان في عامه السابع عشر أحس برغبة ملحة غامضة مجهولة لدراسة اللغة العربية، وحتى آخر أيام حياته «ذاق تماماً ما معنى مرارة الفقر»، وقد وصل ريسكه إلى ليدن سائراً على قدميه، وهناك أمضى ثمانية أعوام من شبابه في ظروف معدمة، وكانت السعادة الوحيدة التي وجدها في المخطوطات، وفي ذلك يقول : ليس عندي أولاد، ولكن أولادي يتامى بدون أب، وأعني بهم المخطوطات ، وقد ربيت هؤلاء الأولاد بنفس جد حزينة حتى بلغوا رشدهم وخرجوا إلى النور، لكن ماذا سيكون أمرهم بعد موتي؟.. لقد عملت لهم كل ما استطعت من جانبي، بل ولن أكف عن

مساعدتهم بكل ما أطيق حتى آخر رمق في الحياة. (ص ٣٢٢).

سابعاً : وأحب أن أختم هذا العرض لكتاب كراتشكوفسكي «مع المخطوطات العربية» بحقيقة مؤلمة، هي أن منطقة كبيرة هي شمال القفقاس (داغستان وتشيتشينيا وانغوشيتيا) تتكلم العربية بطلاقة، ونحن في غفلة عنها ، يقول كراتشكوفسكي: كانت اللغة العربية هناك طيلة عدة قرون هي اللغة الفصحى الوحيدة، لا للعلم فحسب، بل لعلاقات الأعمال أيضاً، وبهذه اللغة تطور تراث له معالمه الخاصة، خلق رجال الشريعة المحليين والمؤرخين والشعراء، وتولّد هناك أدب كبير باللغة العربية الفصحى، التي كانت تستعمل كوسيلة حية للعلاقات بين القبائل (ص ٣٠١).

ويقول أيضاً: إن قوة تيار التراث العربي القديم في القفقاس استطاعت أن تحمل، حتى أيامنا، اللغة العربية الفصحى، التي لا تستخدم في التخاطب العام في موطنها في البلاد العربية، أما في شمال القفقاس فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة، لا في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً (٣١٠).

تُرى، أما زال أهل شمال القفقاس على العهد، يتخاطبون، ويتكاتبون ويترنمون نثراً وشعراً بالعربية الفصحى!!.